

التفاؤل والتشاؤم

اتفق في أسبوع واحد أنى سئلت بعض الأسئلة في موضوعات مختلفة :

سئلت عن مستقبل العروبة ، وسئلت عن مستقبل الإنسانية بعد القنبلة الذرية ، وسئلت عن مستقبل الهيئات العالمية ، أو مستقبل الهيئات التى تتكفل بتقرير السلام ، وتنظيم المعاملات الدولية .

فكان جوابى على هذه الأسئلة مما يبعث الطمأنينة والرجاء ، أو كنت فى هذه الأجوبة من المتفائلين ، ولم أكن من المتشائمين . قال لى أكثر من سائل واحد : عجباً ! إن فى شعرك لسخطاً وشكاية ، وإن فى طبعك لتبرماً وثورة .. فكيف توفق بين هذا ، وبين نعمة التفاؤل التى نسمعها منك فى تلك المسائل الكبرى ؟ وأحب أن أنصف السائل فأقول : إن سؤاله غير عجيب ، وإنه سؤال يخطر على البال ، بل يخطر على بال الكثير . ولكنى أحب أن أنصف الحقيقة فأبادر قائلاً : ولكنه سؤال يقوم على خطأ ، ويتوقف على بيان هذا الخطأ تصحيح الرأى فى كل ما قيل عن المتفائلين والمتشائمين .

خطأ أن يخطر على البال أن الشكوى دليل التشاؤم ، وأن قلة الشكوى دليل التفاؤل .

لأن الإنسان قد يشكو لأنه مفرط في التفاؤل ، وقد يمسك عن الشكوى لأنه مفرط في التشاؤم لا يرجو ولا يرى فائدة من الرجاء ، ولا يألم - من أجل هذا - لفقدان الرجاء . وكل منا يستطيع أن يرى مصداق ذلك ، فيمن يعاشرهم من الأصدقاء والأصحاب . فنحن لا نشكو من الرجل الذى لا يهمننا ولا يستولى منا على موضع الثقة والأمل . وقبلما نذكره بالنقد أو الملام ، لأننا لا نحاسبه على نقص ، ولا نعتقد فيه الكمال .

ولكننا نشكو من الصديق الذى نشق به ونعول عليه ، وننتظر منه المودة ، ولا ننتظر منه الجفاء .

فالشكوى إذن قد تكون مقياساً للثقة والأمل ، أو مقياساً للتفاؤل والإقبال .

وقلة الشكوى ، قد تكون إذن مقياساً لليأس والإعراض ، وقلة الاكتراث ، لأن اليأس كما قيل إحدى الراحةتين . فتكون الراحة على هذا المنوال من أبرز سمات المتشائمين . ذلك هو موضع الخطأ فى السؤال .

وتصحيحه أن الإنسان قد يشكو لأنه ينتظر ويرجو فهو على هذا من المتفائلين ، وإن كان من الشاكين .

وأن الإنسان قد يكف عن الشكوى لأنه لا ينتظر شيئاً
ولا يثق بشيء ، فهو على هذا من المتشائمين ، وإن خلا كلامه
من السخط والامتعاض .

تصحيح آخر يلحق بهذا التصحيح : إن الرضا عن الحياة ،
لا يستلزم الرضا عن كل شيء في الحياة .
فقد يئس الإنسان من هذا الأمر ويعلق الرجاء بغيره ، وقد
يئس من هذه الأمة في حالة من الحالات ويرجوها في حالة
أخرى ، وقد يغضب ويرضى ، ويقدم ويحجم ، ويبالغ في الريبة
ويبالغ في الاطمئنان وهو لا يحسب من أجل ذلك من المتشائمين .
لأنه يجرى على سنة الحياة ، والحياة لا تجرى في اتجاه واحد ..
وحسبنا من التفاؤل أن يجرى الإنسان على سنة الحياة .

إذا صححنا ذلك الخطأ فلا حاجة بنا إلى بحث طويل لنعلم
أن الناس جميعاً متفائلون ، وأن التفاؤل سنة الفطرة التي تجرى
عليها بداهة ، وإن قالت الأفكار غير ما تقول البداهة ، في حين
من الأحيان .

لا حاجة إلى البحث الطويل لنعلم أننا جميعاً متفائلون في
صميم الصميم .

فإن نظرة واحدة إلى الطريق في مدينة من المدن العامرة -

ترينا أننا نحسن الظن بالدنيا وبالناس ، وإن كان في حسن
الظن خطر على الحياة ، بل خطر جد قريب .

فانظروا - مثلاً - إلى راكب السيارة في الطريق المزدحمة
بالسيارات: إنه يسلم حياته في الحقيقة لسلسلة من الظنون التي
لا يقوم عليها برهان : ألا يجوز - مثلاً - أن يكون سائق
السيارة مجنوناً أو قليل الخبرة بالسواقة ؟ إنه يحمل رخصة من
الحكومة . نعم ولكن من الذى يطلب منه هذه الرخصة قبل
الركوب ؟ وهيه طلبها واستيقن من صحتها فمن أين له أن
الموظف الذى أعطاه إياها لم يخطئ في التقدير ؟ ومن أين له أن
السائق لم يصب بالجنون أو بالخبل في تلك اللحظة ، ولا نقول في
لحظة قبل ذلك ؟ ولنزعم أن هذا كله مستحيل - ولا استحالة
فيه على التحقيق - فمن أين لنا أن السيارة القادمة علينا ،
لا تصطدم بنا لسبب مفاجئ يعثرها في أدواتها ؟ أو لأنها داست
على حجر صغير في الطريق فانحرف بها عن سوائها ؟ أو لأن
القراريط القليلة التي تفصل بينها وبيننا ، لم تدخل في حساب
واحد من السائقين ؟ أو دخلت في حسابه ولكن المطاط قديم
ورديء فهو لا ينتظم على سوائه بحساب القراريط ؟

وندع السيارات في الطرقات العامرة ، ونضرب المثل بقطار
للسكة الحديد ، في الخلاء .. وفي الظلام .

ينبعث القطار كالسهم المارق في ظلمات الليل ، فيتوسد
الراكب ما شاء من وساد ثم يستسلم للرقاد .
يقوم على حراسة الطريق مئات من المفتشين والمهندسين ،
وموظفى الحركة وعمال الإشارة والتحويل . وربما كان واحد من
هؤلاء سكران أو نائما في ذلك المساء ،
ربما كان قضيب من القضبان قد رقت من تحته الأرض ،
فانخسف أو غاص به حمل القطار .
ربما سها عامل الإشارة ، أو عامل التحويل ، أو ربما نزعت
نوازع الشر ببعض المجرمين ، فقطع القضبان أو دمر القناطر ،
نكاية بأحد الركاب :
وكل « ربما » من هذه « الربمات » الكثيرة كافية لضياح
القطار ومن فيه .

ولكنهم لا يخافون شرها ، ولا يحسبون حسابها ولا يعتقدون
في قرارة أنفسهم ، إلا أن الأمر على ما يرام ، وأن كل شيء
فيها على أحسن نظام ، وأن تلك الظنون أوهام في أوهام .
يعتقدون ذلك دون أن يفطنوا إليه ، ويعتقدونه في الجد والخطر
وليس في الهزل ولا في الأقاويل ... ويعتقدونه على الرغم من
سهولة الخواطر والاحتمالات التي تشككهم في تلك العقيدة ،
لأن كل احتمال منها جائز كل الجواز في جميع الأوقات ، وكل

احتمال منها قائم فى العقل لا ينفىه برهان ، ولا يلحق به بطلان .

بل مالنا وللسيارات والقطارات ؟

وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟

فكل منا مثال للتفاوت المفرط فى طبيعة الحياة لا يدانيه مثال .
كيف دخلنا إلى هذه الدنيا ؟ وبأى حالة من العجز والحاجة
والنقص الشديد هجمنا عليها ؟

كل منا قد هجم على هذه الدنيا أضعف ما يكون المخلوق
حولاً وحيلة ، وأوهى ما يكون الحيوان فى العقل و الجثمان .
هجم كل منا على هذه الدنيا عارياً ساهياً قليل الأداة ،
محتاجاً إلى كل عون فى الطعام واللباس والمأوى والوقاية .
هجمنا عليها أضعف مما يهجم عليها الحيوان المولود ، لأن
أكثر الحيوان المولود ، يقوم على أرجله ويسلك سبيله إلى العشب
والماء .

وكل علامة من علامات هذا الضعف البالغ - هى فى الوقت
نفسه علامة من علامات الثقة بقوانين الوجود ، وعلامة من
علامات التفاؤل الأصيل الذى يمتزج بطبائع الأشياء ، وعلامة
على أن الإنسان يستقبل الميلاد مغمض العينين ، مفتوح
الغريزة ، معمور البديهة ، مهدى الجنان . وكذلك يصنع فى كل

خطوة كخطوة الميلاد .. وكم في الحياة من خطوات كخطوة الميلاد ؟ .. كم فيها من ميلاد روح وميلاد فكر ؟ وميلاد قريحة ؟ وميلاد ضمير ؟

وليس الإنسان وحده عنوان التفاؤل في ميلاده ، وطبائع حياته ودلائل تصرفاته .. فإن عالم الحياة كله يرينا أن التفاؤل هو سنة الحياة ، وأن الحيوان سعيد طروب ما لم يعرض له سبب من أسباب الشكاية ، فتأتيه الشكاية عارضة ، وتكمن فيه عوامل الرضا بغير سبب غير انتظام الفطرة على سوائها . فهو يرقص ويمرح ويغنى ويلعب إلا إذا جاع ، أو مرض ، أو فارق الأليف ، أو حيل بينه وبين الفطرة المستقيمة ، بعارض من عوارض الانحراف .

فالتفاؤل أصل دائم ، والتشاؤم عارض زائل ، وعلى هذه السنة البديهة ينبغي أن نواجه هذه الدنيا .. بل نحن نواجهها كذلك سواء أخذنا بما ينبغي أو أخذنا بنقيضه ، ولا ننحرف عن هذه السنة القوية مختارين .

إنما نقرر سنة التفاؤل لأنها سنة العمل ، وسنة التكوين الصحيح ، وسنة الفطرة التي يدين بها الوجدان قبل أن تدين بها الأذهان .

وإذا قال الإنسان : إننى متفائل ، فإنه يقول إن العمل غير باطل ، وإنما يقول إن العمل ميسور مفيد ، وكل عمل مفيد ميسور فهو واجب لا محيد عنه ، لأن القعود عن العمل - مع إمكانه وجدواه - أمر غير معقول ولا مستساغ .

نتفاءل إذن لأننا لا نستطيع أن نتشاءم مختارين . ونتفاءل لأننا نريد أن نعمل . فترك العمل هو النتيجة المعقولة لتشاؤم المتشائمين . أما النتيجة المعقولة لتفاؤل المتفائلين فهو أن يفعلوا ما يمكن ، وأن يلتمسوا ما يفيد .

إنهم يعملون ولا بد أن يعملوا ، لأن العمل إن لم يكن فريضة من فرائض الأخلاق وسمة من سمات المروءة . فهو على الأقل حافز من حوافز الطبيعة ، وهو أمتع للنفس ، وأروح للحس ، وأدنى إلى التسلية فى إنفاق الأوقات وقضاء الأعمار .